فدوى طوقان

شاعرة الوجد والحنين

للسيدة وداد سكاكينى

عنـد كلامى على شاعراتنا المعاصرات تطوف بالخواطر ترانيم شاعرة الإغريق سافو التى أنبتتها لسبوس بلدة الفن والأدب . ولقد كانت حياتها وآثارها نغما شرودا ولحنا غريبا . ويقتحم الفكر بعدها اسم الخنساء الذى شاع فى دنيا العرب قديما ، فقد ظهرت هذه النابغة الكريمة شاعرة عز مثلها فى الرجال . ولما فجعها الموت فى أخيها صخر، وكان يبرها ويؤثرها بحنانه وإحسانه سكبت دمعها رثاء له وحزنا عليه حتى تركت ديوانها مثـل عين فياضة بالدموع

ولست أدرى حين أقرأ الشاعرة المعاصرة فدوى طوقان كيف آخذ لهـا الوصف من هاتين الشاعرتين المختلفتين طبيعة ومزاجا ، ففى شعرها من الأولى ألحان وتناغيم، ومن الثانية صور اللوعة والفجيعة ، فأعجب لتشابه النصيب والمصيبة

لقد فجر الحزن قريحة الخنساء وحسها فبكت أخاها بشعر يموج فيه النوح والعويل ، وطال وجدها وأساها ، فهى تبكى أخاها وترثيه لطلوع الشمس وغروبها . وكأنما تحرق شعورها واستبدت بها الحرقة فراحت تنفس عنها هذه المراثى الندابة التى طبعت شعرها بطابع عرفت به ودل عليها

أما فدوى طوقان الفتاة الحضرية الأصيلة التى تثقفت فى بيت عريق المجد والجاه فى مدينة نابلس بفلسطين حيث يشرف جبل النار على هذا الحى المنكوب فقد تعهد أدبها وثقافتها أخوها «إبراهيم» ، وإبراهيم كان حلما من أحلام عبقر ، وعلما من أعلام الشباب الوطنى رف طيفه وطاف شعره منذ عشرين عاما فى آفاق الشام والعراق ، وكان بشرى التجديد والإبداع فى الشعر العربى المعاصر ، ولـكن سرعان ما غيب الموت هـذا الشاعر فأسفت أشد الأسف شقيقته فدوى ، وكانت قد أوتيت مثل أخيها موهبة

نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ولم أجد قط تعريفا للواجب خيرا من هذا

ولا يكون الإنسان مصيبا إلا إذا سار على منهاج الإسلام ، وهو الدين القويم ، لأن الفلاح فى اتباعه (إذا كان منهاج الدنيا طريق الفلاح)

° ° °

إن من فضائل الإسلام التضحية بالنفس والمـال فى سبيل الله ، وهذا لا شك أعظم وأشرف ما نزل من السماء على بنى البشر فى الأرض . إن الإسلام نور الله قد ظهر فى روح محمد ذلك الرجل العظيم ، فأنار الدنيا وبدد ظلماتها ، تلك الظلمات التى كانت تنذر بالهلاك والخسران المبين

وقد جاء به من عنـد الله ملك عظيم سماه (محمد) وحيا ، وقد صدق إذ سماه هذا الإسم ، فمن منا يستطيع أن يسميه اسما آخر ، ألم يجئ فى الإنجيـل (أن وحى الله يهبنا الفهم والإدراك) ولا شك أن العلم ببواطن الأمور والنفاذ إلى جوهر الأشياء لسر غامض وأمر خطير لا يكاد المنطقيون يلمحون منـه إلا قشوره ، وقد قال نوفاليس : أليس الإيمان هو المعجزة الحقة الدالة على الله به . »

إن شعور النبى محمد الذى ضاءت روحه بنور الحقيقة الساطعة ، بأن هذه الحقيقة أهم ما يجب على النـاس أن يعلموه ويؤمنوا به ، لم يكن إلا أمرا بديهيا . وما دام الله تعـالى قد اختصه بها وكشفها له ونجاه من الضلال والتردى فى الباطل فهو مضطر إلى نشرها بين الناس وإظهارها للعالم أجمع ، وهذا كله معنى كلمة « محمد رسول الله » وهذا هو الحق الجلى والصدق المبين وهو روح الإسلام وجوهره

فهل بعـد هذا يستطيع المكابرون أن ينكروا فضله ويجحدون مزاياه ثم يقولون ما هو الإسلام

عبد الموجود عبد الحافظ

Obeikandi.com

الشعر فراحت تبكيه وترثيه بقصيد أعاد إلى الخواطر ذكرى الخنساء. وما أكثر ماقالت فدوى فى وجدها ولوعتها وكأنما كان فيه عندليب يبكى عندليبا، فمنه قولها :

واشقيقاه ما أجل مصابى كيف أودى الردى بزين الشباب
واشقيقاه مات فى عمر الورد غضير الصبى نضير الإهاب
أين منى أخى ؟ فلى الله ما خلاه عنى ما عاقه عن جوابى
حر قلبى « لجعفر وغريب » وهما يرقبان يوم الإياب
كلما استشعرا إليك حنينا هاج فى الصدر من طويل التياب
هتفا باسمك الحبيب وباتا رهن هم ووحشة واغتراب

ويدعو الشاعرة فقد أخيها إلى أن تسأل القدر عما وراء الغيب وعن عالم صار إليه أخوها. وقد سأل قبلها الشعراء عن هذا المصير فما أجابهم إلا صدى يرن فى ظلمات العدم فتقول :

ليت شعرى ما عالم صرت فيه عن عيون الأحياء خلف حجاب
أهو شط الأمان للنفس بعد الخوض فى مزبدات طامى العباب

وبعد عام تزداد فيه هواجس الشاعرة وتستبد بها شجونها فتقول :

لا كان عام ظللت يا سكنى فيه وراء الحياة والزمن
مستوحشا فى الضريح منفردا مرتهنا بالتراب والكفن
لو أننى قمت بالوفاء أخى ما ظل روحى يجول فى بدنى

لقد بكر الحزن على فدوى وطنى ، فقالت فيه أكثر شعرها قبل أن يكون منها شعر من ضرب آخر ، بل كان هذا الحزن مثيرا لآلامها وهمومها التى لونت حسها وخيالها بتلاوين الوحشة والكآبة وجعلتها تقول الشعر تعبيرا عن نفسها وتصويرا لمواجسها ، فكانت مراثيها شجوا ودمعا ، ثم ظهرت قصيدتها « خريف ومساء » مواجهة بالحيرة والزهادة

ويمسح الزمن بعد حين بيده السحرية على وجوم فدوى ووجدها وتتصدى لها رسالة الشعر فتناغيها وتناجيها ، وتهدهد مواجعها بالرجاء والعزاء ، وتستجيب لها الشاعرة فتحاول الخروج من هيكلها القاتم الذى طال وقوفها فيه بين الحسرات والزفرات

كان صنع الشاعرة الطوقانية وهى تنفلت من شجوها كصنع الناسك القديس الذى يترك محرابه للتطواف فى حديقة أو رحبة ناسيا ركعاته الطوال أمام المذبح ، أو كما فعل الناسك الذى صوره أندريه جيد فى السمفونية الرعائية . والشاعرة السادرة فى تفلتها حينا بعد حين من حزنها تتخفف من السواد الذى كان طالقا بألفاظها ومعانيها ، فتؤثر التأمل وتلتمس الفلسفة فى الشعر الذى سارت به على غرار الأوائل. وكنت أتمنى لو انفردت فدوى بلمسات خاصة كالتى ظهرت فى شعرها الأخير حين رمت بطرفها على شاطئ الوجود

أما أنوثة الشاعرة فأمر لا ينبغى أن يغيب فى دراسة الأدب المعاصر ، وفى هذه المرحلة من التحليل النفسى الحديث ، الذى يتناوله نقاد الأدب فى الغرب على نحو من التصريح لا التلميح ، ولم يتهيب الكلام نقادنا القدامى حين حللوا شعر النساء وأولوا لفظه ومعناه . فكأنى من شاعرة أو مغنية فى العصرين العباسى والأندلسى كانت تعرب عن شكواها وجواها ولا ترى حرجا فى أن تتدلل أو تتغزل . ولا أدرى ما يحول بين ناقد الأدب المعاصر وبين تحليله شعر المرأة والمضى وراء مراميها إلى حيث ترف أجنحتها الشعرية فى آفاقها البعيدة ؟

على أن السائد من تقاليدنا ما يزال يجعلنا متحفظين متحرزين فى التعبير عن حقيقة إحساسنا ومنازعنا ، فلا الشاعرة ولا الأديبة تستطيع مع هذا التحرج أن تصور هواجسها وخلجات قلبها ، ولا الناقد يستطيع النفوذ إلى ماوراء الكلام ، ولهذا فإنى حين نظرت إلى طائفة من شعر فدوى قالت أكثره فى التعبير الحاطق والشوق المقيد والقلق المستبد عزوته إلى هذا التحفظ النسوى. غير أن فدوى إذا قيست بشاعراتنا المعاصرات كانت أصدقهن تمثيلا للعاطفة الصحيحة والشعور الذى يخامر الأنثى . وليس معنى هذا أن شعرها مقصور على الوجد والحنين فإن لها تأملات روحية وصورا حسية منوعة دلت على تتبعها وتعمقها فى فهم الكون والحياة والمضى مع تيارات الفكر الحديث . والشعر عند فدوى فن يرفده حس مرهف وقريحة متقدة لم تقنع من الفطرة بالوحى والإلهام . وقارئ قصيدتها أية كانت يشعر أن وراء هذا الشعر من تقوله وقد ملكت

(١) هما ولدا الشاعر إبراهيم طوقان

مواهبه وأسبابه

ولعل الشاعرة الطوقانية قد تأثرت بتعاليم المعرى والخيام، فتوقانها إلى الانعتاق من الحياة ولا سيما انطلاق الروح من الجسم فكرة علائية أكثر المعرى من ذكرها فى لزومياته، وحنينها إلى الينبوع الإلهى نزعة صوفية . أما أملها فى أن تبعث من تربتها زيتونة مثمرة فهذه لمعة خيامية تلوح فى قولها :

يارب إما حان حين الردى   وانعتقت روحى من هيكلى
وأعنقت نحوك مشتاقة   تهفو إلى ينبوعها الأول
وبات هذا الجسم رهن الثرى   لقى على أيدى البلى الجائره
فلتبعث القدرة من تربتى   زيتونة ملهمة شاعره
حتى إذا يا خالق أفعمت   عناصرى أعصابها والجذور
انتفضت تهتز أوراقها   من وقدة الحس ووهج الشعور

ويطغى على فدوى حس مبهم مجنح يساود مثله الشعراء الذين ينطلقون وراء المثل العليا أو يلوبون على حقائق يتوهمونها وينشدونها، إنهم فى عالمهم الخاص يبدعون شخوصا وأشياء ثم يضفون عليها من ألوان الوجود، فاذا هم يناجون ويهتفون وليس بين أيديهم إلا هذه المثل المائعة المدومة فى آفاقها البعيدة . وهذا سر تفوقهم فى متع الخيال وتهاويل الباطن ! والشاعرة الطوقانية لم تنحرف عن سنة هؤلاء؛ ففى شعرها الذى قالته بعد الرثاء لمحات ظمأ وحنين، ونفحات فن وإحساس عنيف، فيها حل لها على الانفلات من قيود عزلتها ووحشتها، وقد عبرت عنها بالشوق إلى المجهول .

ولا يحسبن بعض الملمين بشعر فدوى أن هذا المجهول الذى تمضى وراءه متلهفة حيرى هو المحبوب أو الزوج أو الولد، إن هذا لمن أتفه ما يصبو إليه الشعر . وإنما تنفذ الشاعرة تأملاتها وشطحات شوقها وراء الغيوب، فى السديم المثالى لعالم الشعر الذى لا يفنى . وقد أحس هذا الاحساس كثير من الشعراء والشاعرات وكانوا متزوجين ولهم أولاد وحفدة، وما نسينا تحليق شيخ الشعراء بفرنسا « فيكتور هوغو » حين نشر جناحيه فى سموات هذا المجهول الشارد بأكثر قصائده التى وضمها بديوانه المسمى « كيف يصير المرء جدا » ومرد ذلك عندى إلى الألم العميق، فإن هوغو فقد بنته وزوجها غرقاً فبقى محزونا عليهما، وقال ذلك الشعر الذى يهفو إلى المجهول بسائق من هذا الأسى القيم . وكذلك أرد شعر فدوى فى هذا الصدد، فلولا موت أخيها الذى ضعضعها، وهذه الهواجس التى ألمت بنفسها لما سمت روحها نحو هذه المثل البعيدة .

وإذا كان القول هذا ختام على إيجاز فى الشاعرة الطوقانية فأجل ما ينبغى أن يكون الكلام فيه على شعرها الوطنى . وهل ذهب ذاهب إلى أن فدوى التى هزها الأسى على أخيها إبراهيم لم تكن ذات شعر وطنى ؟ هيهات هيهات ! فان جبل النار الذى يغلى حمية وحرية هو الذى تحدرت من قممه فدوى، وطبعها على هذا الشعر الذى رددته وكأنه أغاريد بطولة وجرس سلاح .

إن لفدوى طوقان فى فلسطين المنكوبة المغصوبة شعرا لم يقل مثله الرجال . وسيظهر هذا الشعر فى ديوانها ملتهباً بالدم مشبوبا بالشمم، فمن قولها فيه :

ياهذه الأقدار لا ترحمى   فرائس الضعف بقايا الرمم
ستنجلى الغمرة يا موطنى   ويمسح الفجر غواشى الظلم
لن يقعد الأحرار عن ثأرهم   وفى دم الأحرار تغلى النقم

وإذا كانت تلوح اليوم فى الآفاق العربية بشائر الشعر النسوى الحديث كما كانت تلوح فى هبات التألق الأدبى الذى كان فى العصرين الأموى والعباسى، وفى الاندلس، فان طائفا من الالهام الإلهى والفن المطبوع قد تخير فدوى طوقان لتحمل رسالة هذا الشعر فى جيلنا المعاصر، يمكنها من ذلك تضلعها من الفصحى وتمرسها بالبيان . وإنها لتجود بالشعر من نفسها وحسها غير منسحبة على التكلف والتقليد، ولا مرددة لشعر مصنوع تفوح منه الترجمة والاقتباس، وإن لها لأمداً بعيداً هى منطلقة نحوه وقد انشق أمامها الطريق .

القاهرة   وداد سكاكينى